**د. خالد النجار**

**بسم الله الرحمن الرحيم**

**محمد الأمين الشنقيطي**

«لا توجد آية في كتاب الله إلا درستها على حده»

( [1305](http://ar.wikipedia.org/wiki/1325) هـ/1887م - [1393](http://ar.wikipedia.org/wiki/1393) هـ/1973م )

في وسط قارة إفريقيا وفي قرية تسمى شنقيط كانت نشأته، وبين مكة والمدينة كانت شهرته، وبرع في العلوم كلها حتى فاق أقرانه، أراد مكة حاجـًا وزائرًا، وأراده الله معلمـًا ومفسرًا، إن تحدث في التفسير خِلته الطبري، وإن أنشأ في الشعر حسبته المتنبي، وإن جال في الحديث وعلومه ظننته ابن حجر العسقلاني، مفسرًا، ومحدثًا، وشاعرًا، وأديبًا، إنه صاحب «أضواء البيان» العالم الولي الزاهد الورع العلامة الشنقيطي – ولا نزكي على الله أحدا -، فمن يا ترى هذا الرجل؟ وأين نشأ؟ وكيف تلقى علمه؟ وكيف كانت أخلاقه؟ وما هو أضواء البيان هذا؟

هو محمد الأمين [[1]](#footnote-1) بن محمد المختار بن عبد القادر [الجكني](http://ar.wikipedia.org/w/index.php?title=%D8%A7%D9%84%D8%AC%D9%83%D9%86%D9%8A&action=edit&redlink=1) [الشنقيطي](http://ar.wikipedia.org/wiki/%C3%98%C2%B4%C3%99%C2%86%C3%99%C2%82%C3%99%C2%8A%C3%98%C2%B7) والمعروف ب- ( [آبّ [[2]](#footnote-2) ولد اخطور](http://ar.wikipedia.org/wiki/%C3%98%C2%A2%C3%98%C2%A8%C3%99%C2%91_%C3%99%C2%88%C3%99%C2%84%C3%98%C2%AF_%C3%98%C2%A7%C3%98%C2%AE%C3%98%C2%B7%C3%99%C2%88%C3%98%C2%B1) ). ينتهي نسبه إلى جد قبيلة (تجكانت) من أشهر قبائل موريتانيا علماً وفضلاً. يرجع نسب تلك القبيلة إلى حمير، نزحت إلى تلك البلاد وحافظت على نسبها وعروبتها.

وهو - رحمه الله - وحيد أبويه، ونشأ يتيمـًا، فقد توفي أبوه وهو صغير يقرأ في جزء «عم» فنشأ في بيت أخواله، وكان بيت علم، فحفظ القرآن على يد خاله، وعمره عشر سنوات، وتعلم رسم المصحف على يد ابن خاله، وقرأ عليه كذلك التجويد. وأخذ الأدب وعلوم اللغة على يد زوجة خاله، فكانت مدرسته الأولى بيت خاله، فنعم البيت كان.

وقد كانت البيئة التي تربى فيها الشيخ هي بيئة علم كما ذكرنا، والشاب فيها إذا لم يكن متعلماً لو خطب فإنه لا يزوج أبداً، فهذه البيئة بيئة تعليم والنساء فيها متعلمات، وذلك إذا رأينا أنه أول ما درس الأنساب والسيرة درسها على زوجة خاله، وكانت متعلمة في النحو وتبعتها بعد ذلك أبنتها في تعليم الناس النحو، فالنساء هناك بارعات وخاصة فيما يتعلق بالسيرة والفقه واللغة وأنساب العرب.

أما بقية الفنون فتعلم الفقه المالكي وهو السائد في بلاده، فدرس مختصر خليل على يد الشيخ محمد بن صالح إلى قسم العبادات، ثم درس عليه أيضـًا ألفية بن مالك، ثم أخذ بقية العلوم على مشايخ متعددين، وكلهم من الجكنيين، وهي القبيلة التي ينتمي إليها الشيخ، وكانت معروفة بالعلم حتى قيل: «العلم جكني».

وكانت الطريقة المعهودة في بلاده هي أن يبدأ الطالب بفن واحد من الفنون، ويبدأ بكتابة المتن في اللوح الخشبي فيكتب قدر ما يستطيع حفظه، ثم يمحوه ثم يكتب قدرًا أخر، غير أنه - رحمه الله - تميز في طلب العلم فألزمه بعض مشايخه بأن يقرن بين كل فنين، حرصـًا على سرعة تحصيله، وقد انشغل - رحمه الله - بطلب العلم حتى تأخر في الزواج، ولما كلمه البعض في أمر الزواج رد عليهم قائلاً:

دعاني الناصحون إلى النكاح \*\*\* غداة تزوَّجتْ بيض الملاحِ

فقالوا لي تزوج ذات دلٍّ \*\*\* خلوب اللحظ جائلة الوشاحِ

تبسم عن نوشرة رقاق \*\*\* يمج الراح بالماء القراح

كأن لحظها رشقات نبل \*\*\* تذيق القلب آلام الجراح

ولا عجب إذا كانت لحاظ \*\*\* لبيضاء المحاجر كالرماح

فكم قتلت كميًّ ذا ولا حي\*\*\* ضعيفاتُ الجفونِ بلا سلاحِ

فقلت لهم دعوني إن قلبي \*\*\* من العي الصراح اليوم صاحي

ولي شغل بأبكار العذارى \*\*\* كأن وجوهها ضوء الصباح

أراها في المهارق لابسات \*\*\* براقع من معانيها الصحاح

أبيت مفكرا فيها فتضحي \*\*\* لفهم القدم خافضة الجناح

أبحت حريمها جبرا عليها \*\*\* وما كان الحريم بمستباح

قال الشيخ رحمه الله: لما حفظت القرآن وأخذت الرسم العثماني وتفوقت فيه على الأقران عنيت بي والدتي وأخوالي أشد عناية وعزموا على توجيهي للدراسة في بقية الفنون فجهزتني والدتي بجملين أحدهما عليه مركبي وكتبي والآخر عليه نفقتي وزادي وصحبني خادم ومعه بقرات وقد هيئت لي مركبي كأحسن ما يكن المركب وملابس كأحسن ما تكون فرحا بي وترغيبا لي في طلب العلم.

قال الشيخ عطية حدثني الشيخ -رحمه الله- فقال: جئت للشيخ في قراءتي عليه فشرح لي كما كان يشرح ولكنه لم يشف ما في نفسي على ما تعودت ولم يرو لي ظمئي، وقمت من عنده وأنا أجدني في حاجة إلى إزالة بعض اللبس وإيضاح بعض المشاكل وكان الوقت ظهرا فأخذت الكتب والمراجع فطالعت حتى العصر فلم أفرغ حتى المغرب فأوقد لي خادمي النار وكنت أشرب الشاي الأخضر كلما كسلت حتى انبثق الفجر وأنا في مجلسي لم أقم إلا لصلاة أو تناول طعام حتى فرغت من درسي وزال اللبس عني.

**العالم الرباني**

عُرف عنه الذكاء واللباقة والاجتهاد والهيبة. واجتهد في طلب العلم فأصبح من علماء موريتانيا، وتولى القضاء في بلده فكان موضع ثقة حكامها ومحكوميها.

وكان الشيخ – رحمه الله- جوهرة ثمينة، وقد ملئ علمـًا من مفرق رأسه إلى أخمص قدميه، أو كما يقول عنه الاستاذ محمد المجذوب -رحمه الله-: « ثقافة موسوعية، حتى ليخيل إليك وهو يحضر تقريراته منها أنها تخصصه الذي لا يكاد يعدوه، شأنه في ذلك شأن الأسلاف الكبار».

قال العلامة العثيمين لابن الشيخ محمد الامين أبوك كان يحفظ البداية والنهاية كاملة، وقال أحد العلماء كان يحفظ تفسير القرطبي كاملا رحمه الله.

**الشيخ والشعـر**

كان الشيخ -رحمه الله- ذا قريحة وقادة، وكانت شاعريته رقراقة، ومعانيه عذبة فياضة، وأسلوبه سهل جزل، وبالرغم من هذا كله فقد كان رحمه الله يتباعد عن قول الشعر.

سأله تلميذه الشيخ عطية محمد سالم -رحمه الله- عن سبب تركه للشعر مع قدرته عليه وإجازته فيه فقال: تذكرت قول الشافعي فيما ينسب إليه:

ولولا الشعر بالعلماء يزري \*\*\*لكنت اليوم أشعر من لبيـد

ومثل هذا قاله ابنه عبد الله، وقال أيضـًا: وجدت شعرًا لأبي عند أحد الناس فأردت حفظه، فقال لي: استأذن أباك، فاستأذنته فزجرني بشدة، ونهاني عن تعلمه ونسبته إليه.

وحدث أن قدم يومـًا - رحمه الله - وهو في مقتبل شبابه، ولم يكن يعرفه أحد فسأله سائل من يكون فأجاب الشيخ - رحمه الله - مرتجلاً:

هذا فتى من بني جاكاني قد نزلا به \*الصبا عن لسان العرب قد عدلا

رمت به همــــة عليــاء نحـوكم\* إذ شام برق علوم نـوره اشتـعـلا

فجـاء يرجو ركامــــًا من سحائبه \*تكسو لسان الفتـى أزهـاره حللا

إذا ضـاق ذرعـًا بجهل النحو ثم \*أبا ألا يمـيـز شكل العين من فـعلا

قد أتـى اليـوم صبا مولعـًا كلفـا\* بالحـمـد لله لا أبغـي لـــه بــدلا

**أخلاقــه**

أما عن أخلاق الشيخ -رحمه الله- فحدث ولا حرج، فهو آية في أخلاقه، كرمه، وعفته، وشجاعته، وزهده، وترفُّع نفسه، فهو صاحب ميزة فيها يقول تليمذه الشيخ عطية محمد سالم: فهذا ما يستحق أن يفرد بحديث وإني لا أستطيع إلا تصويره ولا يسعني في هذا الوقت تفصيله.

يقول أ.د.محمد المختار بن محمد الأمين الشنقيطي -عضو هيئة التدريس في جامعة طيبة بالمدينة النبوية-: ( أما أخلاقه فقد كان مربياً وعلى خلق عظيم إلا إذا أراد شخص أن يتناول من شخص آخر في مجلسه، فإنه لا يساوم على أحد يتكلم في أعراض الناس، وكان في محاضراته لا يتعرض لشخص في عينه وإنما يتكلم في المنهج، ويكشف الشخص بمنهجه، ولم أسمعه يتكلم على شخص معين حتى ولو كان من أهل البدع، فإنه كان يتكلم في منهجه مع كرهه للبدع). [[3]](#footnote-3)

لم تكن الدنيا تساوي شيئـًا عنده، وكان غير مكترث بها، على طول فترة إقامته بالمملكة لم يطلب عطاء ولا راتبـًا ولا ترفيعـًا لمرتبه، ولا حصولاً على مكافأة، ولكن ما جاء من غير سؤال أخذه، وما حصل عليه لم يكن ليستبقيه لنسفه؛ بل يوزعه على غيره. كما يقول الشيخ عطية محمد سالم: كان كثير التغاضي عن أمور تخصه هو، وتتعلق بنفسه، فإن سئل عن ذلك تمثل قول الشاعر:

ليس الغبي بسيد في قومه \* لكن سيد قومه المتغابي

**تواضعــه**

أما عن تواضعه فقل إنه صاحبه، كان إذا سئل مسألة في أخريات حياته، تباعد عن الفتيا، فإذا اضطر قال: لا أتحمل في ذمتي شيئـًا العلماء يقولون كذا، وكذا.

قال معاصروه: وقد كان الشيخ - رحمه الله - يتورع عن الفتوى إلا في شيء فيه نص من كتاب أو سنة... قال ابنه الشيخ عبد الله: جاءه وفد من الكويت في أواخر حياته فسألوه في مسائل فقال أجيبكم بكتاب الله، ثم جلس مستوفزا وقال: الله أعلم، {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } [الإسراء:36] لا أعلم فيها عن الله ولا عن رسوله -صلى الله عليه وسلم- شيئا، وكلام الناس لا أضعه في ذمتي فلما ألحوا عليه قال: فلان قال كذا وفلان قال كذا، وأنا لا أقول شيئا.

يقول الشيخ عطية محمد سالم: سألته مرة عن ذلك - أي تحفظه في الفتيا - فقال: إن الإنسان في عافية ما لم يبتلى، والسؤال ابتلاء، لأنك تقول عن الله ولا تدري أتصيب حكم الله أم لا، فما لم يكن عليه نص قاطع من كتاب الله أو سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وجب التحفظ فيه ويتمثل بقول الشاعر:

إذا ما قتلت الشيء علمـًا فقل به \*ولا تقل الشيء الذي أنت جاهله

فمن كان يهوى أن يرى متصدرًا \*ويكره لا أدري أصيب مقاتله

ألا ليت شعري ألا يتأمل المتعجلون في الفتوى لمثل هذا، ألا يرحم ناشئة طلاب العلم أنفسهم والناس من الفتاوى السريعة، والأجوبة الجاهزة، والأحكام الجريئة.

بل وأعجب من هذا كله أنه كان يردد على مسامع تلامذته «صار أمثالنا علماء لما مات العلماء» وكأنه كان يعلم تلامذته الإقلال من الفتوى، والتثبت من العلم.

**أعماله وجهـوده في نشر العلم في بلاده**

كانت أعماله - رحمه الله - كعمل غيره من العلماء: الدرس والفتيا، واشتهر - رحمه الله - بالقضاء وبالفراسة فيه، وقد كان الناس يفدون إليه من أماكن بعيدة، وكان عضوًا في لجنة الدماء التي تعرض عليها أحكام القصاص من القتلى والتي كانت تتكون من عضوين للتصديق على أحكام الحاكم الفرنسي.

والقضاء في موريتانيا ليس لحكومة، لأن سبب خروج الشيخ من موريتانيا هو وجود المستعمر الفرنسي، حيث يقول: إذا رأيت العلم الفرنسي يرفرف في الهواء أظلمت الدنيا في عيني، فكان ذلك سبباً في خروجه إلى الحج، وكان قاضياً متبرعاً وطريقة قضائه بين الخصوم إذا جاءه اثنان يستكتبهما، أي أن كل واحد يكتبه ويوقعه، ويقول إذا حكمت بينكم في شيء فأنتم راضون، فإذا وقعوا على هذا حكم بينهم، وكان يقول أنا أضيفهم وأحكم بينهم ثم يذهبون، فلما جاء إلى السعودية وعرض عليه المفتي محمد بن إبراهيم - رحمه الله - بواسطة ابن زاحم في المدينة المنورة أن يذهب إلى الرياض قال له: أنا أتيت وتركت والدتي وأطفالي وأريد أن أرجع، فأجابه اجلس معنا فأنت تعطي العلم، وبحمد الله الآن تلامذته لا يحصون - منهم القضاة والعلماء والأساتذة في الجامعات.

**خروجه من بلاده**

خرج من بلاده لأداء فريضة الحج برا بنية العودة فقد كان في بلاده يسمع عن الوهابية وكان من فضل الله ومنته علينا وعليه أن قدم الحج ونزل بدون علمه بجوار خيمة الأمير خالد السديري دون أن يعرف أحدهما الآخر وكان الأمير خالد يبحث مع جلسائه بيتا في الأدب - وهو ذواقة أديب - إلى أن سألوا الشيخ فوجدوا بحرا لا ساحل له، فكانت تلك الجلسة بداية منطلق لفكرة جديدة فأوصاه الأمير إن قدم المدينة أن يلتقي بالشيخ عبد الله بن زاحم وعبد العزيز بن صالح، وفي المدينة التقى بهما وتباحث معهما ما سمع عن الوهابية وكان صريحا فيما عرض عليهما مما سمع عن البلاد فدارت بينهم جلسات، وكان أكثرهما مباحثة معه فضيلة الشيخ عبد العزيز بن صالح، حتى اقتنع الشيخ بأن منهج المجدد الإمام محمد بن عبد الوهاب منهج ذو سلف وأنه منهج سليم العقيدة يعتمد الكتاب والسنة وعليه سلف الأمة ثم رغب في البقاء في المسجد النبوي لتدريس التفسير. ودرس عليه الشيخ عبد العزيز بن صالح الصرف.

**جهود الشيخ الدعوية في السعودية**

مكث الشيخ في المملكة واستقر به المقام في المدينة المنورة ورغب - رحمه الله - في هذا الجوار الكريم، وقام بتفسير القرآن مرتين وتوفي - رحمه الله - ولم يكمل الثالثة.

وفي سنة (1317هـ) افتُتح معهد علمي بالرياض وكلية للشريعة وأخرى للغة، واختير الشيخ للتدريس بالمعهد والكليتين فتولى تدريس التفسير والأصول إلى سنة (1381هـ).

ومكث الشيخ بالرياض عشر سنوات وكان يقضي الإجازة بالمدينة ليكمل التفسير، وكان - رحمه الله - يدرس في مسجد الشيخ محمد آل الشيخ في الأصول، كما كان يخص بعض الطلاب بدرس آخر في بيته، وقد كان بيته أشبه بمدرسة يؤمها الصغير والكبير والقريب والبعيد.

ولما أنشئت الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة كان الشيخ - رحمه الله - علمـًا من أعلامها ووتدًا من أوتادها، يرجع إليه طلابها كما يرجع إليه شيوخها، وفي سنة (1386هـ) افتتح معهد القضاء العالي بالرياض فكان الشيخ يذهب لإلقاء المحاضرات المطلوبة في التفسير والأصول.

ولما شكلت هيئة كبار العلماء، كان - رحمه الله - عضوًا من أعضائها، وكان رئيسـًا لإحدى دوراتها. كما كان - رحمه الله - عضوًا في رابطة العالم الإسلامي.

**تلامذته**

له تلاميذ كثيرون في بلاده وفي المسجد النبوي والرياض ولا يمكن إحصاؤهم، منهم على سبيل المثال: الشيخ العلامة عطية سالم رحمه الله والشيخ العلامة حمود بن عقلاء الشعيبي رحمه الله وكذلك الشيخ محمد صالح المنجد بل قد درس عليه في المعهد العلمي مثل الشيخ العلامة محمد صالح بن عثيمين رحمه الله والشيخ عبد الرحمن البراك وغيرهم الكثير الذين درسوا عليه في الجامعة والمعهد ودروسه في أنحاء المملكة.

ومن تلامذته أيضا: د. عبد الله التركي - وزير الأوقاف ومدير جامعة الأمام محمد بن سعود سابقاً، والشيخ عبد الله بن غديان والشيخ صالح اللحيدان والشيخ العباد حفظ الله الجميع، وممن سمع عليه كما ذكره هو بنفسه الشيخ ابن باز - رحمه الله - فإنه سمع عليه آداب البحث والمناظرة وهو علم المنطق، ولما توفى الشيخ الشنقيطي قال الشيخ بن باز في محاضرة: أنا ممن أفدت من الشيخ وممن قرأت عليه، وقد كان بينهما التصافي والود، ولم أر الشيخ يذهب إلى أحد يزوره في بيته غير الشيخ ابن باز وكان كل منهما يثني على الآخر.

**مؤلفاته**

خاض الشيخ - رحمه الله - غمار التأليف منذ نعومة أظفاره، فألف وهو في بلاده:

1-   نظمـًا في أنساب العرب.. وكان ذلك قبل البلوغ. ويقول أنه أتلفه لأنه ألفه لغير غرض حسن، حيث يقول إنه ألفه بغرض التفوق على أقرانه، ثم بعد ذلك قال أنه ندم على ذلك؛ لأن الإنسان يستطيع أن يصلح نيته.

2-   رجزًا في فروع مذهب مالك.

3-   ألفية في المنطق.

4-   نظمـًا في الفرائض.

وهذه المؤلفات الأربعة مازالت مخطوطة

وألف في بلاد الحجاز:

1-   منع المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز.

2-   دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب.

3-   مذكرة الأصول على روضة الناظر.

4-   آداب البحث والمناظرة.

5-   أضواء البيان لتفسير القرآن بالقرآن.

كما أن هناك العديد من المحاضرات.

**ثناء العُلماء عليه**

قال فيه الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله: ( مُلئَ علماً من رأسه إلى أخمص قدميه). وقال أيضاً: (هو آيةٌ في العلم والقرآن واللغة وأشعار العرب).

وقال الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم آل الشيخ: (جزا الله عنا الشيخ محمد الأمين خيرا على بيانه هذا فالجاهل عرف العقيدة والعالم عرف الطريقة والأسلوب).

وقال عنه الشيخ ابن باز - رحمه الله -: ( من سمع حديثه حين يتكلم في التفسير, يعجب كثيراً من سَعة علمه واطلاعه وفصاحته وبلاغته, ولا يملُّ سماع حديثه ).

وقال عنه العلامة الألباني - رحمه الله -: ( من حيث جمعه لكثير من العلوم, ما رأيت مثله ) وشبهه بشيخ الإسلام ابن تيمية رحمهم الله.

وقال الشيخ بكر أبو زيد: ( لو كان في هذا الزمان أحد يستحق أن يسمّى شيخ الإسلام لكان هو ).

وقال الشيخ حماد الأنصاري - رحمه الله-: ) له حافظةٌ نادرةٌ قوية, ويُعتبر في وقته نادراً)

وقال الشيخ العلامة حمود العقلا: (من خيرة العلماء علما وورعا وزهدا)، (وكان علْم الشيخ الشنقيطي غزير جدا خاصة في الأصول والمنطق والتفسير والتاريخ واللغة والأدب وكان منقطع النظير في هذه ويجمع لها غيرها.)

**بعض أخباره رحمه الله**

يقول عنه أحد طُلّابه وهو الشيخ عبد الله أحمد قادري: كان رحمه الله قوي العاطفة, يتفاعل مع الآيات, ويظهر لمن يراه ويسمعه أنه يفسر ويتفكر ويتعجب ويخاف ويحزن ويسر, بحسب ما في الآيات من المعاني. كان يُحرك يديه ويتحرك وهو على مقعده بدون شعور من شدة تفاعله مع معاني الآيات, فكان مقعده يزحف حتى يصل إلى المقعد الذي يقابله من مقاعد الطلاب.

وكان يدخل قاعة الدرس وهو مريض لا يكاد يستطيع الكلام من وجع حلقه, ولكنه بعد قليل من بدء المحاضرة ينطلق بصوته وينسى أنه مريض لشدة تفاعله مع المعاني التي يلقيها.

**وفاته**

توفي - رحمه الله - ضحى يوم الخميس 17 من ذي الحجة 1393ه- بمكة المكرمة مرجعه من الحج وصلى عليه سماحة رئيس الجامعة فضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، وصلى عليه بالمسجد النبوي ليلة الأحد فضيلة إمام المسجد النبوي الشريف الشيخ عبد العزيز بن صالح ثم صُلي عليه في أماكن أخرى.. رحمة الله تعالى عليه.

ودفن بمقبرة المعلاة بريع الحجون في مكة - رحمه الله - وجمعنا به في مستقر رحمته يوم القيامة.

قال الشيخ أحمد بن أحمد الشنقيطي - وهو غاسل الشيخ ـ: (من الغريب أن أحد أقاربه حج معه في سيارته فرأى ليلة جَمَعْ أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- توفي وأنه جاءه فوجده مسجى عليه ثوب، فرفع الثوب، فوجد أن الميت نبي ولكنه ليس محمداً -صلى الله عليه وسلم- فقبله في جبينه فلما حكى الرؤيا على الشيخ، سأله: وما يدريك أنه ليس بمحمد؟ قال: لم تتوفر فيه الصفات الثابتة بالسنة التي نعرفها، فتكدر وجه الشيخ. فقال الرجل: أظنه أضغاث أحلام. فقال الشيخ: لا، بل هي رؤيا، ولكن يقضي الله خيرا ).

**كتاب أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**

يقع هذا الكتاب في سبعة أجزاء، وصل فيها الشيخ إلى قوله تعالى في سورة المجادلة: {لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [المجادلة:22] ووافقه المنية، فأكمل التفسير من بعده تلميذه الشيخ عطية محمد سالم - رحمه الله ـ.

**المقصود من تأليف الشيخ لهذا التفسير:**

1 - بيان القرآن بالقرآن لإجماع العلماء على أن أشرف أنواع التفسير وأجلّها تفسير كتاب الله بكتاب الله.

2 - بيان الأحكام الفقهية. ومن ثم فإن الكتاب يصنف على أنه تفسير القرآن بالمأثور، فهو تابع فيه لمدرسة التفسير بالأثر، ويدخل كذلك في مدرسة التفسير الفقهية، ومن هنا فقد ذكره صاحب كتاب «اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر» مرتين، الأولى في المنهج أهل السنة والجماعة، والثانية في المدرسة الفقهية.

**منهجـه:**

بيّن المؤلف - رحمه الله - غرضه من تأليف هذا التفسير بقوله: «واعلم أن من أهم المقصود بتأليفه أمران:

أحدهما: بيان القرآن بالقرآن لإجماع العلماء على أن أشرف أنواع التفسير وأجلّها تفسير كتاب الله بكتاب الله، إذ لا أحد أعلم بمعنى كلام الله جلّ وعلا من الله جلّ وعلا، وقد التزمنا أنا لا نبين القرآن إلاّ بالقراءة سبعية سواء كانت قراءة أخرى في الآية المبينة نفسها، أو آية أخرى غيرها، ولا نعتمد على البيان بالقراءات الشاذة وربما ذكرنا القراءة الشاذة استشهادًا للبيان بقراءة سبعية، وقراءة أبي جعفر ويعقوب وخلف ليست من الشاذ عندنا ولا عند المحققين من أهل العلم بالقراءات.

والثاني: بيان الأحكام الفقهية في جميع الآيات المبينة - بالفتح - في هذا الكتاب، فإننا نبين ما فيها من الأحكام وأدلتها من السنة وأقوال العلماء في ذلك، ونرجح ما ظهر لنا أنه الراجح بالدليل، من غير تعصب لمذهب معين ولا لقول قائل، معين لأننا ننظر إلى ذات القول لا إلى قائله، لأن كل كلام فيه مقبول ومردود إلاّ كلامه -صلى الله عليه وسلم- ومعلوم أن الحق حق ولو كان قائله حقيرًا.

وقد تضمن هذا الكتاب أمورًا زائدة على ذلك، كتحقيق بعض المسائل، اللغوية وما يحتاج إليه من صرف وإعراب والاستشهاد بشعر العرب وتحقيق ما يحتاج إليه فيه من المسائل الأصولية والكلام على أسانيد الأحاديث، كما سنراه إن شاء الله تعالى » [[4]](#footnote-4)

وقال أيضـًا في بيان منهجه، رحمه الله تعالى: «واعلم أن مما التزمنا في هذا الكتاب المبارك أنه إن كان للآية الكريمة مبين من القرآن غير وافٍ بالمقصود من تمام البيان فإنا نتمم البيان من السنّة من حيث أنها تفسر للمبين باسم الفاعل» [[5]](#footnote-5)

وقال أيضـًا: «وربما كان في الآية الكريمة أقوال كلها حق وكل واحد منها يشهد له قرآن فإنا نذكرها ونذكر القرآن، الدال عليها من غير تعرض لترجيح بعضها؛ لأن كل واحد منها صحيح » [[6]](#footnote-6)

وقد التزم - رحمه الله - بهذا فالتزم تفسير القرآن بالقرآن معتمدًا على القراءات السبع مبتعدًا عن القراءات الشاذة ومستندًا إلى السنّة النبوية الطاهرة معتبرًا لأقوال العلماء الثقات، لا يتعصب الرأي، ولا يحقر قولاً، بل ينظر إلى ذات القول لا إلى قائله، يستوفي الأقوال ويرجح بالدليل والبرهان، إن كنت أصوليـًا وجدت في تفسيره دقائقه، وإن كنت من علماء الحديث وجدت فيه بدائعه، وإن كنت فقيهـًا وجدت فيه وفاءه، وإن كنت من علماء العقيدة وجدت فيه صفاءها ونقاءها، بل عقيدة أهل السنة والجماعة التي لا تشوبها شائبة، وإن كنت من علماء كل هذا وجدت فيه رواءك وشفاءك.

**طرق تفسيره:**

أولاً: تفسير القرآن بالقرآن:

وهذا النوع من التفسير هو الذي أبرزه المؤلف في تفسيره وأعتني به عناية كبيرة، بل أفرده بدارسة قيّمة في مقدمة تفسيره، لا أحسبك تجدها بهذا الجمع والترتيب عند سواه، ولولا أنه ذكر من أنواع بيان القرآن بالقرآن أكثر من عشرين نوعـًا في أكثر من عشرين صفحة لسقتها لك بحذافيرها، فهي الكنز عليك به من معدنه وتعجب حين تقرأ له بعد أن عدّد هذه الأنواع قوله: «واعلم - وفقني الله وإياك لما يحبه ويرضاه - أن هذا الكتاب المبارك - يعني تفسيره - تضمن أنواعـًا كثيرة جدًا من بيان القرآن بالقرآن، غير ما ذكرنا تركنا ذكر غير هذا منها خوف إطالة الترجمة، والمقصود بما ذكرنا من الأمثلة مطلق بيان كثرة الأنواع التي تضمنها واختلاف جهاتها - وفي البعض تنبيه لطيف على الكل - والغرض أن يكون الناظر في الترجمة على بصيرة ما يتضمنه الكتاب في الجملة قبل الوقوف على جميع ما فيه» [[7]](#footnote-7)

ولذا فلا تثريب عليّ أن ذكرت بعض الأمثلة لبعض الأنواع التي جاءت بعد تفسيره - رحمه الله - فهي أنواع كثيرة وأمثلة أكثر، فمن ذلك:

**بيان الإجمال:**

وقد ذكر - رحمه الله - في مقدمة تفسيره أن الإجمال يكون بسبب الاشتراك سواء كان الاشتراك في اسم أو فعل أو حرف. ومن الاشتراك في اسم قوله تعالى: {وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ} [الحج:29]، قال - رحمه الله - في ذلك: «في المراد بالعتيق هنا للعلماء ثلاثة أقوال:

الأول: أن المراد به القديم، لأنه أقدم مواضع التعبد.

الثاني: أن الله أعتقه من الجبابرة.

الثالث: أن المراد بالعتق فيه الكرم، والعرب تسمي القديم عتيقـًا وعاتقـًا ومنه قول حسان - رضي الله عنه -:

كالمسك تخلطـه بمـاء سحـابة \*أو عاتق كـدم الذبيـح مـدام

لأن مراده بالعاتق الخمر القديم التي طال مكثها في دنها زمنـًا طويلاً وتسمي الكرم عتقـًا، ومنه قول كعب بن زهير:

قنـواء في حرتيهــا للبصير بهـا \*عتق مبين وفي الخدين تسهيــل

فقـوله عتق مبين: أي كرم ظاهر ومنه قول المتنبي:

ويبين عتــق الخيـل في أصــواتهـا

أي كرمها، والعتق من الجبابرة كالعتق من الرق، وهو معروف.

وإذا علمت ذلك فاعلم: أنه قد دلت آية من كتاب الله على أن العتيق في الآية بمعنى: القديم الأول، وهي قوله تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ} [آل عمران:96] مع أن المعنيين الآخرين كلاهما حق، ولكن القرآن دل على ما ذكرنا، وخير ما يفسر به القرآن القرآن» [[8]](#footnote-8)

وقد يكون الإجمال بسبب إبهام في اسم جنس جمعـًا كان أو مفردًا أو اسم جمع أو صلة موصول أو معنى حرف.

ومثال الإجمال بسبب الإبهام في اسم جنس مجموع: قوله تعالى: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ} [البقرة:37] قال - رحمه الله - في ذلك: «لم يبين هنا ما هذه الكلمات، ولكنه بيّنها في سورة الأعراف بقوله: {قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف:23].[[9]](#footnote-9)

ومثال الإجمال بسبب الإبهام في اسم جنس مفرد قوله تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ} [الأعراف:137] قال - رحمه الله - في تفسيرها: «لم يبين هنا هذه الكلمة الحسنى التي تمت عليهم ولكنه بينها في القصص بقوله: {وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ} [القصص:5- 6]. [[10]](#footnote-10)

ومن أمثلة هذا النوع أعني أن يكون الإجمال بسبب الإبهام في اسم جنس مفردًا، قوله تعالى: {وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ} [الزمر:71] قال - رحمه الله ـ: «فقد بينها بقوله: {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } [السجدة:13] ونحوها من الآيات» [[11]](#footnote-11)

**ثانيـًا: تفسير القرآن بالسنـَّة:**

أما تفسير القرآن بالسنّة ومن أقوال الرسول -صلى الله عليه وسلم- فقد أورد - رحمه الله - عددًا كثيرًا منها وهذه بعضها:

فمن ذلك: تفسيره لقوله تعالى: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ }الفاتحة7 [الفاتحة:7]، قال: «قال جماهير من علماء التفسير {المغضوب عليهم} اليهود، {الضالين} النصارى، وقد جاء الخبر بذلك عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من حديث عدي بن حاتم - رضي الله عنه - » [[12]](#footnote-12)

وقال في تفسير قوله تعالى: {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ} [البقرة:228]، وأما الذين قالوا الأطهار فاحتجوا بقوله تعالى: {فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ}[الطلاق:1] قالوا عدتهنَّ المأمور بطلاقهنَّ لها الطهر لا الحيض كما هو صريح الآية، ويزيده إيضاحـًا قوله -صلى الله عليه وسلم- في حديث ابن عمر المتفق عليه: «فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرًا قبل أن يمسها فتلك العدة كما أمره الله» [[13]](#footnote-13). قالوا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- صرح في هذا الحديث المتفق عليه بأن الطهر هو العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء، مبينـًا أن ذلك هو معنى قوله تعالى: {قُرُوَءٍ} وهو نص من كتاب الله وسنّة نبيه في محل النزاع.

قال مقيده عفا الله عنه: الذي يظهر لي أن دليل هؤلاء هذا فصل في محل النزاع، لأن مدار الخلاف هل القروء الحيضات أو الأطهار ؟ وهذه الآية، وهذا الحديث، دلا على أنها الأطهار.

ولا يوجد في كتاب الله، ولا سنّة نبيه -صلى الله عليه وسلم- شيء يقاوم هذا الدليل، لا من جهة الصحة، ولا من جهة الصراحة في النزاع، لأنه حديث متفق عليه مذكور في معرض بيان معنى آية من كتاب الله تعالى» [[14]](#footnote-14)

ومنها ما هو بيان أحكام زائدة على ما جاء في القرآن ومنها ما هو بيان للناسخ والمنسوخ، ومنها ما هو تأكيد لما جاء في القرآن، وغير ذلك.

**ثالثـًا: تفسير القرآن بأقوال الصحابة:**

والمؤلف - رحمه الله - كثيرًا ما يستشهد بالتفسير الصحيح لصحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وكثيرًا ما يذكر لتفاسيرهم شواهد من آيات القرآن الكريم أو من سنّة المصطفى -صلى الله عليه وسلم-.

ففي تفسير قوله تعالى: {وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ} [النحل:112].قال - رحمه الله - وقوله: {فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ} وقع نظيره قطعـًا لأهل مكة لما لجّوا في الكفر والعناد ودعا عليهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقال: «**اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسنين يوسف**» [[15]](#footnote-15).فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء حتى أكلوا الجيف والعلهز [هو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه] وأصابهم الخوف الشديد بعد الأمن، وذلك الخوف من جيوش رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وغزواته وبعوثه وسراياه، وهذا الجوع والخوف أشار لهما القرآن على بعض التفسيرات فقد فسر ابن مسعود آية (الدخان) بما يدل على ذلك».

ثم ذكر - رحمه الله - بعض الروايات عن ابن مسعود - رضي الله عنه - وعقب عليها قائلاً: «وفي تفسير ابن مسعود - رضي الله عنه - لهذه الآية الكريمة - ما يدل دلالة واضحة على أن ما أذيقت هذه القرية المذكورة في (سورة النحل) من لباس الجوع أذيقه أهل مكة حتى أكلوا العظام وصار الرجل منهم يتخيل له مثل الدخان من شدة الجوع، وهذا التفسير من ابن مسعود - رضي الله عنه - له حكم الرفع لما تقرر في علم الحديث: من أن تفسير الصحابي المتعلق بسبب النزول له حكم الرفع، كما أشار له صاحب طلعة الأنوار بقوله:

تفسير صاحب لـه تعلـق بالسبب الرفــع لــه تحقق

وكما هو معروف عند أهل العلم » [[16]](#footnote-16).

**أثر التفسير في بناء الشخصية واتزانها** [[17]](#footnote-17)

لما كان التأثير يتم بمقدار عـظـمـة المؤثر ظهر تأثير تفسير القرآن في بناء الإنسان وشخصيته قوياً وكاملاً، ويصعب علينا حـصـر جميع جوانب التأثير في بناء شخصية الإنسان واتزانها واعتدالها، وسأقتصر على بعض الجــوانـب. وأقول: إن الاشتغال بفهم القرآن وتفسيره والتفقه فيه يرقق إحساس الطالب ويقوي شعوره، وينمي فيه حب الآخرين؛ بحيث يجعله يتألم لألمهم ويفرح لفرحهم، ويسعد لسعادتهم.

ومــن مبتكرات القرآن في التعبير عن هذا الإحساس أن جعل قتل الرجل لغيره قتلاً لنفسه، وجـعـل إخراج الرجل من داره إخراجاً لنفسه، وجعل ظن السوء بغيره ظناً بنفسه، وجعل لمز غـيـره لمزاً لنفسه، وجعل السلام على غيره سلاماً على نفسه، وكل ذلك أراده القرآن في تعبيراته.

قال تعالى في سياق أخبار بني إسرائيل: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ثُمَّ أَنتُمْ هَـؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ} [البقرة: 84- 85]. فـجـعــل دم كل فرد من أفرادهم كأنه دم الآخر عينه حتى إذا سفكه كان كأنه بخع نفسه وانتحر ذاته.

قال القرطبي: (ولما كانت ملتهم واحدة وأمرهم واحداً وكانوا كالشخص الواحد جعل قتل بعضهم بعضاً وإخراج بعضهم بعضاً قتلاً لأنفسهم ونفياً لها)[[18]](#footnote-18).

قال الشيخ ابن عاشور: (وليس المراد النهي عن أن يسفك الإنسان دم نفسه، أو يخرج نفسه من داره؛ لأن مثل هذا مما يزع المرء عنه وازعه الطبعي.. وإنما المراد أن لا يسفك أحد دم غيره ولا يخرج غيره من داره) [[19]](#footnote-19).

ومثل هذا السياق قوله تعالى: {فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ } [البقرة: 54]. ومعناه: فليقتل بعضكم بعضاً بأن يقتل من لم يعبد العجل عابديه؛ فإن قتل المرء لأخيه كقتله نفسه.

قال القرطبي: (وأجمعوا على أنه لم يؤمر كل واحد من عبدة العجل بأن يقتل نفسه بيده) ثم نقل عن الزهري قوله: (أن يقتل من لم يعبد العجل من عبد العجل)[[20]](#footnote-20).

وقال الله تعالى في سياق هذا المعنى: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ} [النساء: 29] أي لا يقتل بعضكم بعضاً، فجعل قتل الرجل لغيره قتلاً لنفسه، قال القرطبي: (أجمع أهل التأويل على أن المراد بهذه الآية النهي أن يقتل بعض الناس بعضاً، ثم لفظها يتناول أن يقتل الرجل نفسه بقصد منه) [[21]](#footnote-21).

قال الحافظ ابن كثير: (وهو الأشبه بالصواب) [[22]](#footnote-22)، قال الزمخشري: (شبّه الغير بالنفس لشدة اتصال الغير بالنفس في الأصل أو الدين، فإذا قتل المتصل به نسباً أو ديناً فكأنما قتل نفسه) [[23]](#footnote-23) وقال الحافظ ابن كثير: (إن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة) [[24]](#footnote-24).

وقد بين الله أن من قتل نفساً بغير حق فكأنما قتل الناس جميعاً وقال: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً} [المائدة: 32].

ومن تعبيرات القرآن بالنفــس وإرادة الأخ في الدين قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} [المائدة: 105]. نقل الفخر الرازي عن عبد الله بن المبارك أنه قال: (هذه أوكد آية في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنه سبحانه قال: {عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ} ويـعـنـي علـيـكـم أهل دينكم، ولا يضركم من ضل من الكفار، بأن يعـظ بعضكم بعضاً، ويرغّب بعضكم بعضاً في الخيرات وينفره عن القبائح والسيئات) [[25]](#footnote-25)؛ لأن المؤمنين إخوة في الدين.

ومن تعبيرات القرآن بالنفس وإرادة الغير قال تعالى: {فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون} [النور: 61] والمعنى: فليسلّم بعضكم على بعض، وهم أهل البيوت التي يدخلونها؛ لأنهم بمنزلة أنفسهم في شدة المحبة والمودة والألفة، ولأنهم منكم في الدين، فكأنكم حين تسلمون عليهم تسلمون على أنفسكم، وقد أنكر الشيخ ابن عاشور عـلـى من فهم من الآية أن الداخل يسلم على نفسه، فقال: (ولقد عكف قوم على ظاهر هذا اللفظ، وأهملوا دقيقته؛ فظنوا أن الداخل يسلم على نفسه إذا لم يجد أحداً، وهذا بعيد من أغراض التكليف والآداب) [[26]](#footnote-26).

أقول: وهو المأثور عن سعيد بن جبير والحسن البصري وقتادة والزهري حيث قالوا: (فليسلم بعضكم على بعض) [[27]](#footnote-27).

ومن تعبيرات القرآن بالنفس وإرادة الأخ في الدين قوله تعالى: {وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ}[الحجرات: 11]. والإنسان لا يلمز ولا يعيب نفسه وإنما اللاّمز يلمز غيره إشارة إلى أن من عاب أخاه المسلم فكأنما عاب نفسه، فنزل البعض الملموز منزلة نفس الإنسان لتقرير معنى الإحساس بالأخوة وتقوية الشعور بها.

ومن تعبيرات القرآن عن الغير بالنفس قوله تعالى: {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً } [النور: 12].

الـمــراد بأنفسهم هنا إخوانهم في الدين والعقيدة؛ فهلاّ وقت أن سمعتم حديث الإفك هذا ظنـنـتـم بأنفسكم أي بإخوانكم وأخواتكم ظناً حسناً جميلاً؛ إذ لا يظن المرء بنفسه السوء، وفي هذا التعبير عن إخوانهم وأخواتهم في العقيدة بأنفسهم أسمى ألوان الدعوة إلى غرس روح المحبــة والمودة والإخاء والإحساس الصادق، حتى لكأن الذي يظن السوء بغيره إنما يظنه بنفسه [[28]](#footnote-28).

قال الرّازي: (فجعل الله المؤمنين كالنفس الواحدة فيما يجري عليها من الأمور، فإذا جرى على أحدهم مكروه فكأنه جرى على جميعهم) [[29]](#footnote-29).

فهذا الأسلوب القرآني وهذا الخطاب الرباني يؤكد معنى وحدة الأمة ويحدث في النفس أثراً وإحساساً يبعثها على الامتثال؛ فالطالب الذي يربى على هذه المعاني وهذه الدقائق القرآنية، لا شك أنها تؤثر فيه وتغرس فيه هذا الإحساس وهذا الشعور.

ومن تدبر هذا الأسلوب القرآني علم أنه لا قوام لهذه الأمة إلا بمثل هذا الشعور وهذا الإحساس، وشعور كل فرد من أفرادها بأن نفسه نفس الآخرين، ودمه دم الآخرين، وظن السوء بهم ظن بنفسه، والسلام عليهم سلام على نفسه، وعيبهم عيب لنفسه.

لا فرق في المحافظة عـلـى الروح التي تجول في بدنه والدم الذي يجري في عروقه، وبين الأرواح والدماء التي يحيا بها إخوانه: {الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ} [النساء: 1]. وقال -صلى الله عليه وسلم-: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**» [[30]](#footnote-30). وكل هذه المعاني وإن كانت كامنة في القرآن فإن التفسير يكشفها ويجليها.

إن الاشتغال بفهم القرآن والتفقه فيه يكون سبباً للطمأنينة والسكينة ويحصل لصاحبه عز الدنيا وسعادة الآخرة؛ كما أخبر بذلك المعلم الأول -صلى الله عليه وسلم-: «**وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده**» [[31]](#footnote-31).

وقد دلت التجارب العملية على ذلك؛ فهذا الرازي ينقل لنا تجاربه فيقول: (وأنا نقلت أنواعاً من العلوم النقلية والعقلية فلم يحصل لي بسبب شيء من العلوم من أنواع السعادات في الدين والدنيا مثل ما حصل بسبب خدمة هذا العلم) [[32]](#footnote-32) يعني تفسير القرآن.

وقد نقل هذا النص رشيد رضا، ثم قال مبيناً كلامه: (أي: علم القرآن بتفسيره؛ فليعتبر بهذا من يضيعون جل أوقاتهم في طلب العلم الديني بعلوم الكلام وغيرها، ويرجعوا إلى كتاب الله، ويطلبوا السعادة من فيضه دون غيره. ونسأل الله تعالى أن يوفقنا إلى تفسيره) [[33]](#footnote-33).

ونقله الشيخ الطاهر بن عاشور في تحريره [[34]](#footnote-34)، ومصداق ذلك في كتاب الله: {وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأنعام: 155].

وقد أدرك هذه السعادة الغامرة الإمام القرطبي فعزم واستفرغ قوته ورأى أن يشتغل بالتفسير مدى العمر - رحمه الله تعالى - [[35]](#footnote-35).

وإن بعض العلماء الذين برزوا في الدعوة إلى الله، وقاموا بنهضة شاملة وإصلاح عامّ اعتمدوا في دعوتهم - بعد الله - على دروس التفسير، فأثمرت دعوتهم ونالت قبولاً، وأقبل عليها الناس من جميع الأصناف والطبقات، وأحدثت دعوتهم تغييراً إصلاحياً في العقيدة والسلوك، وانتشرت في الشرق والغرب.

وإذا أردنا أن نتجول مع هذا الأثر الحميد فسنجد من بين هؤلاء المبرّزين الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت 1376هـ). وقد اعتمد في دعوته في نشر التوحيد والإصلاح في ربوع نجد على تفسير القرآن الكريم، فكان ذا عناية فائقة بالتفسير وفنونه وبرع فيه؛ فألف ثلاثة كتب في التفسير وحده: (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)، و(تيسير اللطيف المنان في خلاصـة القرآن)، و(القواعد الحسان لتفسـير القرآن) [[36]](#footnote-36).

وإذا انتقلنا غرباً إلى مصر فإننا نجد محمد عبده يعتمد في دروسه على التفسير [[37]](#footnote-37)، فقد ألح عليه تلميذه رشيد رضا أن يلقي دروساً في التفسير، ويعلل لذلك بقوله: (إن الكلام المسموع يؤثر في النفس أكثر مما يؤثر الكلام المقروء) ثم واصل بعده رشيد رضا إلى أن حان أجله دون إكمال التفسير - رحم الله الجميع -.

وإذا انتقلنا إلى تونس غرباً وجدنا الإمام الطاهر بن عاشور يتأثر بمدرسة رشيد رضا في التفسير، وألف تفسيراً كاملاً سماه: (التحرير والتنوير)، فحرر الناس من الجهل والظلمات ونوّر به البلاد التونسية. وإذا انتقلنا قليلاً إلى الغرب في الجزائر فإننا نجد الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس قد اقتصر عليه في دعوته الإصلاحية الشاملة ابتداءً بتحقيق التوحيد وحقوقه إلى محاربة الاستعمار؛ فقد عكف على تفسير القرآن إلى أن ختمه في ثلاث وعشرين سنة على مدة التنزيل ولم يختم التفسير رواية ودراية في الجزائر غيره منذ أن ختمه أبو عبد الله الشريف التلمساني في المائة الثامنة فتعلم الناس منه كلّ شيء [[38]](#footnote-38).

وإذا عرّجنا جنوباً إلى بلاد شنقيط وجدنا الإمام محمد الأمين الشنقيطي يفسر القرآن بالقرآن ويسميه: (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن).

فهؤلاء الأئمة - رحمهم الله - كانوا مجاهدين بالقرآن: بتفسيره وبيانه والتفقه فيه، وقد سمّى القرآن ذلك جهاداً كبيراً فقال: {فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً} [الفرقان: 52] أي بالقرآن كما ذكره ابن عباس، وفي هذا منقبة عظيمة لمن يدعو إلى الله تعالى بالقرآن العظيم وتفسيره وتوضيحه للناس فهو مجاهد [[39]](#footnote-39) اقتداءً بالمصطفى -صلى الله عليه وسلم-؛ حيث أمره الله أن ينذر قومه بالوحي: {قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ} [الأنبياء: 45] وقال: {وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ} [الأنعام: 19] فكل من أنذر الناس بغير هذا الوحي فهو مخطئ.

**من ثمرات التفسير**

من أهم ما يثمره تفسير القرآن والتفقه فيه في شخصية الطالب التخلص من التعصب والتقليد، بل إذا ابتدأ الطلب بعد حفظ القرآن بعلم تفسيره وبيانه كما رتبه الله في قوله: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ} [البقرة:129] لم يجد هذا الهاجس إلى نفسه سبيلاً، وينتفي. وما وُجِدَ التعصب والتقليد إلا بمخالفة المنهج الذي رسمه القرآن في التعليم، وهو التلاوة والتفسير والحكمة والتزكية؛ كما جاء في قوله تعالى: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ} [البقرة: 129].

فبمخالفتنا لمنهج التربية والتعليم كما رسمه القرآن الكريم نعلّم الطلاب التعصب والتقليد من حيث لا ندري؛ ولذلك نجد كتب التفسير تختلف اختلافاً كبيراً؛ نظراً لكون أصحابها دخلوا باب التفسير بعدما تشبعوا بأفكار ومذاهب ظهرت آثارها في تفسيرهم، في حين أن الذي دخل إلى التفسير كما دخله الصحابة والتابعون ومن تبعهم واقتفى آثارهم ظهرت آثار التفسير فيهم؛ فالسلف تأثروا بتفسير القرآن، وأثّر التفسير فيهم، والخلف أثروا في التفسير، ولم يتأثروا به.

فظاهرة التعصب والتقليد لا تُمحى إلا بتفسير القرآن وفهمه والتفقه فيه؛ لأن النظر في القرآن نفسه وفي ألفاظه بالذات يجعل الطالب يأخذ الحكم الذي تدل عليه الآية دلالة قطعية أو الحكم الأقرب إلى نص الآية إن اختلفت فيها أنظار العلماء. وفي دروس التفسير والتفقه في القرآن يتعلم الطالب الاستقلال في الأخذ والترجيح، وعدم التبعية والتقليد.

ومما يدل على استقلال شخصية طالب علم التفسير والتفقه في القرآن ما لاحظته عند ابن العربي مع أنه كثيراً ما يتعصب لمذهبه ويحمل على المخالفين، إلا أن أسلوب القرآن وروعة بيانه أرغمه في بعض المواضع من كتابه: (أحكام القرآن) على عدم التعصب وعلى ترجيح مذهب المخالفين لمذهبه مبيناً الوجه والسبب، فقال عند قوله تعالى: {كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ } [الأنعام: 141] قال: قال أبو حنيفة: (تجب الزكاة في كل ما تنبته الأرض من المأكولات) ثم تعرّض لذكر بقية المذاهب وصرح بما يخالف مذهبه فقال: (أما أبو حنيفة فجعل الآية مرآته فأبصر الحق) [[40]](#footnote-40). قال القرطبي: (وأخذ يعضد مذهب الحنفي ويقويه) [[41]](#footnote-41).

هذا هو حال من يطلب فقه القرآن لا فقه الفقه، وهكذا حال كل من يجعل القرآن مرآته؛ فإنه يبصر الحق كما أبصره الإمام أبو حنيفة وابن العربي - رحم الله الجميع - فما أحوجنا اليوم إلى أن نجعل القرآن مرآتنا لنبصر الحق والهدى والرشاد.

والطالب الذي يتعلم على هذا النمط في التفسير والتفقه في القرآن تكتسب شخصيته اتزاناً واعتدالاً وتكاملاً ولا ينحاز ولا يميل؛ لأن المصدر الذي يتلقى منه علومه واحدٌ، فلا يطغى عليه جانب دون جانب؛ فهو عند آيات الأسماء والصفات يتعلم أسماء الله وصفاته بلا تعطيل ولا تمثيل، وإذا جاء إلى آيات الجهاد تعلم وتفقه في أحكام الجهاد، وإذا جاء إلى آيات الأحكام تعلم الفقه والأحكام الشرعية، وإذا مر على آيات الفرائض تعلم ذلك، ولا شك، وإذا مر على البر والإحسان تعلم ذلك، وتطبع به وعمل به، وإذا مر على الآيات التي يذكر فيها أخبار الأمم السابقة وأحوالهم وما آل إليه أمرهم اعتبر بذلك واتعظ، وتعلم قصص الأنبياء والرسل وما لاقوه في سبيل الدعوة إلى الله - عز وجل - وعلم طرق الدعوة ووسائلها وأهدافها.

وإذا مر على الآيات التي تدعو إلى التفكر والتأمل والاعتبار لمخلوقات الله الكونية تعلم طرق التدبر والتفكر، فتنمو فيه ملكة التفكير السليم والنظر السديد والتصور الصحيح، فينعكس ذلك على سلوكه؛ لأن سلوك الإنسان في الحياة مرتبط بتفكيره ارتباطاً وثيقاً: يستقيم باستقامته، ويعوج باعوجاجه، ويثمر بإثماره، ويعقم بعقمه، وأفعالُه ناشئة عن اعتقاداته، وأقواله إعراب عن تلك الاعتقادات.

ومن جهة أخرى؛ فإن الطالب الذي يتفقه في القرآن يمر على جميع الآيات القرآنية فيتكامل الموضوع لديه؛ لأن موضوع الآيات ومقاصدها ليست منسقة في موضع واحد، وليست الآيات في سياق واحد؛ فتجد أن الآية أو الآيات مفصولة عن الأولى بجملة من الآيات، وهي في الموضوع نفسه، وقد تكون ناسخة، وقد تكون منسوخة، وقد تكون بياناً وتفسيراً، وقد تكون قيداً، وقد تكون إجابة عن شبهة؛ والأمثلة على هذا النمط كثيرة، منها قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [ص: 65] هي جواب لقول كفار قريش في صدر السورة: {وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ} [ص: 4]، وقوله عز وجل في آخر السورة: {{قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ } [ص: 65- 66]، هي جواب لقولهم في صدر السورة: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [ص: 5]، وقوله جل وعلا في آخر السورة: {قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ} [ص: 67-68]، هو جواب وتفنيد لقولهم في صدر السورة: {مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ} [ص: 7]، هذا ما وقع في السورة الواحدة نفسها، وبين إثارة الشبهة والجواب عنها أكثر من ستين آية.

أما ما وقع الجواب عنه في غير السورة التي وردت فيها الشبهة فكثير، ومنه قوله تعالى: {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ} [القلم: 1- 2]، وقوله تعالى: {وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ} [التكوير: 22]، فمثل هذه الآيات أجوبة تفند زعمهم الباطل كما حكاه القرآن: {وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ} [الحجر: 6].

وإذا كان الأمر كذلك؛ فإن القرآن كالسورة الواحدة، وحينئذ يتكامل الموضوع لدى الطالب ويؤثر في بنائه العلمي والنفسي. والله أعلم.

**التفسير ووحدة المسلمين**

ومن أهم ما يثمره الاشتغال بالتفقه في القرآن وعلومه وتفسيره الوحدة بين جميع المسلمين: وحدة في الإحساس والشعور، ووحدة في الوجدان والتفكير، ووحدة في السلوك والعمل، فتتقارب النفوس وتستقيم وتتحد نوازعها ومشاربها وتصوراتها لصدورها عن أصل واحد ونبع واحد وهو التفقه في القرآن وعلومه فيزدادون صلة ووداً ومحبة.

**التفسير وبناء الشخصية**

ولذلك كان أهل القرون الفاضلة إخوة متماسكين، ولم يكن بينهم هذا التباعد وهذا الجفاء وهذا الانفصال الذي نراه اليوم بين طلبة العلم من جهة وبينهم وبين أساتذتهم من جهة أخرى.

تفسير القرآن وفهمه يساهم مساهمة فعالة ترى آثارها بادية في بناء الشخصية السوية المعتدلة؛ لأن القرآن يتضمن علوماً كثيرة ومنوعة ومكررة بمختلف الأساليب، وكل واحد منها يغذي جانباً من جوانب الشخصية مع المحافظة على التوازن والتكامل؛ لأن نظرة القرآن الكريم إلى الإنسان نظرة شاملة تغطي جميع مجالات حياة الإنسان.

ولما كانت الوسطية من مزايا هذه الأمة حث عليها الشرع، وقررها القرآن {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً} [البقرة: 143] وكان لتفسير القرآن وفهمه والتفقه فيه أثر قوي لا ينكر في تحقيق صفة اعتدال الشخصية واتزانها.

وقد تُحْدث دراسةُ العلوم الإسلامية المفصولة عن القرآن الكريم انفصالاً في بعض جوانب الشخصية؛ فقد يتعلق بعضهم بالفقه فقط، والآخر بالحديث، وبعضهم بالعقيدة، ولكن هذه العلوم هي بعض مما تضمنه القرآن وهي جزء من التفسير.

وقد يكون الاقتصار عليها مؤدياً بصاحبه إلى الميل والشطط والغلو والتعصب، وقد حصل شيء من هذا؛ وكل ما نراه من فروق واضحة بين الطلبة يرجع إلى الاختلاف بينهم في تخصصات مفصولة من القرآن، وإن كانت تعتمد على القرآن؛ فالفصل وحده كاف لإحداث هذا، ثم لا يستطيع الإنسان أن يجزم بأن هذه الآية في الأحكام، وهذه في العقيدة.

وإذا كان أولها في الأحكام وآخرها في العقيدة فماذا يفعل؟

ولذلك لم تنضبط آيات الأحكام عند العلماء، وكان من الموفقين في ذلك الإمام القرطبي؛ إذ سمى كتابه: (الجامع لأحكام القرآن)، وفسر القرآن كله ولم يستغن عن بعضه، ولم يستطع أن يسلخ منه هذه الأحكام. كما فعل أبو بكر الجصاص وابن العربي، فإن الفصل وحده كاف لإسقاط بعض المعاني، والربط وحده يتضمن أحكاماً. قال الرازي: (إن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط).

فالذي يقضي على مظاهر الانحراف والغلو والشذوذ هو الاشتغال بالقرآن فهماً وتفسيراً وتفقهاً.

ومما يؤخذ على من يقتصر على موضوع واحد ومادة واحدة أو تخصص واحد أنه ينعزل وينغلق على ما حبس نفسه فيه، وانزوت شخصيته في دائرة ضيقة من علوم الإسلام؛ وبذلك تنحصر علاقته بالأمة في أشخاص معدودين، وتتقلص مودته إلى العدد القليل من الناس، ولم تكن له مشاركة ولا مساهمة عفوية مع الآخرين، فقد بتر نفسه من جميع بقية فروع المعرفة وعلوم التنزيل التي حواها كتاب الله.

تفسير القرآن وفهمه والتفقه فيه يصل أصحابه بأصحاب التخصصات العلمية الأخرى، ويرتبط بجميع أصناف الناس وطبقاتهم، ويطمئنون للأخذ عنه والاستماع إليه؛ لأنه لا يعلم فناً معيناً بعينه، ويستطيع أن ينشر عقيدة التوحيد على أوسع نطاق من خلال دروس التفسير.

وانفصال المواد الدراسية على إطلاقه ليس من طبيعة هذا الدين ولا من شأن عمل السلف الصالح؛ فإنهم كانوا يأخذون بالقرآن كلاً لا يتجزأ؛ فلا بد من ربط كل هذه العلوم وهذه المواد الدراسية بالقرآن الكريم، ولا يحقق هذه الغاية إلا تفسير القرآن والتفقه فيه دون سواه؛ فهو وحده الكفيل بتحقيق شمولية التربية والتعليم من جميع النواحي.

ولم يكن للصحابة - رضي الله عنهم - كتاب يدرسونه، وكلام محفوظ يتفقهون فيه إلا القرآن وما سمعوه من نبيهم -صلى الله عليه وسلم-، ولم يكونوا في مجالسهم يتذاكرون إلا ذلك، فخلف من بعدهم قوم يقرؤون القرآن ولا يفهمونه، وآخرون يتفقهون في كلام غيرهم ويدرسونه، وآخرون يشتغلون في علوم أخرى وصنعة اصطلاحية.

قال الشيخ عبد الرحمن النحلاوي: (فانفصال المواد الدراسية ليس من طبيعة الثقافة الإسلامية، ولا من شأن التربية الإسلامية التي تأخذ بالإسلام كلاً لا يتجزأ، وتعتبر كل العلوم التي تأخذ بالإسلام كلاً لا يتجزأ، وتعتبر كل العلوم التي انبثقت عنه ما تزال وظيفتها توضيح الشريعة الإسلامية والحفاظ عليها فلا بد من ربط كل هذه العلوم بهدف التربية الإسلامية).

إن فصل المواد الدراسية من القرآن والسنة بمرور الزمن قد يُنسي ربطها به، ويتقرر في أذهان الناس استقلالها، وحينئذ يدخلها اجتهادهم واستحسانهم بالتغيير والتبديل والإضافة.

ومن السمات البارزة عند بعض أهل الفرق أنهم لا يفسرون القرآن كله، ولا يتبعونه آية آية؛ لأنهم إن فعلوا فإنهم يصطدمون بالآيات المحكمات التي تناقض مذهبهم وهواهم، فيسلكون مسلك الانتقاء والاختيار، ومن فسر القرآن كله منهم كالزمخشري من المعتزلة والطبرسي من الشيعة وغيرهم، فإنهم يوجهون الآيات التي تصادم مذهبهم بالتأويل ويسلكون في سبيل ذلك كل مسلك انتصاراً لمعتقداتهم؛ فهم من باب قول الحق تبارك وتعالى: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ} [الأنعام: 159].

قرأ الجمهور: (فَرَّقُوا دِينَهُمْ) من التفريق وهو الفصل بين أجزاء الشيء الواحد، وجعله فرقاً وأبعاضاً، وقرأ حمزة والكسائي: [فارقوا] من المفارقة للشيء وهي تركه والانفصال منه، وهي تفيد أن تفريق الدين قد يستلزم مفارقته؛ لأنه واحد لا يتجزأ، ومن التفريق الإيمان ببعض الكتاب دون بعض ولو بالتأويل وترك العمل.

والدين لا يتجزأ، وقد قال الله تعالى: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ} [البقرة: 85] وقال: {كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى المُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ} [الحجر: 90- 91]، وقال: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً} [النساء: 150].

قال محمد حسين الذهبي: (إن الباطنية لا يفسرون القرآن كله؛ لأنهم يصدمون بآيات محكمات تردّ مذهبهم).

وقال في بيان موقف الخوارج من التفسير: (لا يأخذون من القرآن إلا بقدر ما ينصر مبادئهم ويدعو إليها. وما رأوه يصادم مذهبهم حاولوا التخلص منه بصرفه وتأويله).

وقد لجأ بعضهم إلى المتشابه لغرض نصرة المذهب الفاسد كما نص على ذلك القرآن المجيد فقال: {فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ} [آل عمران: 7].

وأهل الزيغ والضلال يفزعون إلى المتشابه الذي بواسطته يمكنهم أن يلبّسوا به، ويصرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة وينزلوه عليها، وما دخلت البدع في دين الله إلا بسبب التعلق ببعـض الآيات وإهمال الآيات الأخـرى أو سوء فهم لها.

فالمعتزلة تعلقوا بقوله تعالى: {فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ} [الكهف:29] وأثبتوا حرية الإنسان، وقالوا: إنه خالق لأفعاله، ونفوا صفة الكلام لله رب العالمين، وتعلقوا بقراءة شاذة {وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً} [النساء:164] فجعلوا موسى هو الفاعل المتكلم، وأغمضوا أعينهم عن القراءة المجمع عليها: {وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} [الأعراف: 143].

ويقابلهم الجبرية فتعلقوا بقوله: {وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ} [الإنسان:30] ونفوا نسبة الأفعال إلى من صدرت عنه، وقالوا: (الإنسان مجبور وعطلوا الأمر والنهي).

والكرامية لم ينظروا في باب الإيمان إلا في قوله تعالى: {فَأَثَابَهُمُ اللّهُ بِمَا قَالُواْ } [المائدة: 85]، وقالوا: (الإيمان قول باللسان فقط دون تصديق ولا عمل).

قال القرطبي: (وهذا منهم قصور وجمود، وترك نظر لما نطق به القرآن والسنة).

وهكذا حال من تعلق ببعض الكتاب دون بعض، وهو انحراف خطير في الفكر وشذوذ في التفكير واعتلال في الشخصية أوجبه الاقتصار على بعض الآيات دون بعض.

قال رشيد رضا: (وفهم القرآن لا يكون صحيحاً إلا بالجمع بين الآيات المتقابلة في الموضوع الواحد الذي يختلف التعبير فيه).

وإزاء هذا وذاك وفق الله المنتسبين لأهل السنة والجماعة في تفسير القرآن بالشمولية والاستيعاب لجميع الآيات القرآنية كلها، ولا يقتصرون على بعضها للاستفادة منها، ومن ثم؛ لم يكن عندهم هذا الشطط وهذا الانحراف وهذا الشذوذ.

فالتفسير وفهم القرآن وحده هو الذي يقضي على ظاهرة التفرق والتحزيب والانتماء إلى فكر معين وتخصص معين؛ فمدرسة التفسير تذوب فيها جميع الفوارق. فإني أتصور الطالب وأتخيله عبداً يملكه شركاء مختلفون وهو بينهم موزع، ولكل منهم فيه توجيه، وعليه تكليف، وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج، ولا يستقيم على طريق، ولا يملك أن يرضي أوامرهم المتعارضة التي تمزق اتجاهاته وقواه، وهذا واضح جلي في طلاب الجامعات التي لا تلتزم بمنهج القرآن.

وأتصوره وأتخيله عبداً يملكه سيد واحد، وهو يعلم ما يطلبه منه ويكلفه به وهو مستريح مطمئن مستقر على نهج واحد، وهذا واضح جلي في طلاب الجامعات التي تلتزم بمنهج القرآن الكريم.

ولا شك أن الذي يتلقى علومه وفقهه من القرآن الكريم - ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتفسير - يخضع لهذه المادة ويتعلم منها، فتربطه بالقرآن، فينعم براحة الاستقامة والمعرفة واليقين وتجمع الطاقة ووحدة الاتجاه ووضوح الطريق، فينشأ سوي الشخصية متزناً معتدلاً.

والذي يتعلم هذه العلوم منفصلة عن القرآن ومن أشخاص مختلفين، فإنه يتأثر بذلك؛ لأن كل أستاذ يلقنه غير الذي يلقنه الآخر، وكل منهم يريده أن يكون على طريقته ومنهجه، فينعكس ذلك على شخصيته، فيتشتت ذهنه، وربما يحدث فيه شذوذاً عن الجادة، لذا يتأكد على رجال التربية والتعليم أن يكثفوا مقررات التفسير.

ولم أرَ علاجاً أنفع لهذه الأمة كـفـهم القرآن وبيانه وتفسيره، وإن الأمة اليوم تحفظ القرآن وتردده صباح مساء، ولكن لا تفهمــه؛ فبينه وبينهم غيوم كثيفة وحجب وعوائق من أهمها وأشدها كثافة: ضعفهم في علوم اللـغــــة العربية التي نزل بها القرآن الكريم؛ فكيف يدعو الداعي الناس إلى الشريعة الإسلامية، وهـم لا يفهمونها ولا يفهمون مصدرها؟ ولو فهموا ما في القرآن من الأحكام والحكم وما فيه من الأسرار واللطائف لتملكهم القرآن وجرهم إليه جراً كما جر بعض كفار قريش إلى الاستماع إليه في الليالي المظلمة، وكانوا يدفعون تأثيراته باللغو: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} [فصلت: 26] فكانـوا مغلوبـين.

المطلوب منا أن نفسر القرآن ونوضحه ونبينه فقط، وفي ضمنه نتعلم الأحكام والحكم والفقه والعقائد والأخلاق وكل شيء مما يحتاجه الإنسان لسعادته في الدنيا والآخرة.

وبيان القرآن وفهمه هو الكفيل - بإذن الله - لهداية هذه الأمة الحائرة، وجميع أصناف الناس على مختلف مشاربهم يجدون في علم التفسير ما يروي الظمأ ويشبع الرغبة، وما يعدّل السلوك، وما ينظّم الغرائز والدوافع، ويقوّي الإيمان، ويصحح الاتجاه.

والطريقة الوحيدة التي يستطيع بها الأستاذ أن يبلغ منهج القرآن كاملاً غير منقوص هو علم التفسير؛ فليمتط من أراد الرشد سفينة التفسير؛ ليتعلم ما يسعده في دنياه وآخرته.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

**مصادر الترجمة**

- نبذة مختصرة عن السيرة الذاتية لفضيلة العلامة الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي العلامة الشنقيطي صاحب أضواء البيان / أكرم كساب

- ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: " عبد الرحمن السديس " ط دار الهجرة

- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشيخ: محمد الأمين الشنقيطي / ط دار الكتب العلمية.

- اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر: " د. فهد بن عبد الرحمن الرومي ".

## جمع وترتيب

## **د/ خالد سعد النجار**

**alnaggar66@hotmail.com**

1. اسم مركب علم عليه [↑](#footnote-ref-1)
2. ولقبه: آبا، بمد الهمزة وتشديد الباء من الإباء [↑](#footnote-ref-2)
3. من محاضرة عامة حول: - العلامة المفسر محمد الأمين الشنقيطي نظمتها اللجنة الثقافية التابعة لجمعية إحياء التراث الإسلامي في قرطبة [↑](#footnote-ref-3)
4. أضواء البيان في إيضاح القرآن 1/3ـ4 [↑](#footnote-ref-4)
5. أضواء البيان1/24 [↑](#footnote-ref-5)
6. (أضواء البيان1/20) .
 [↑](#footnote-ref-6)
7. ( أضواء البيان1/26) . [↑](#footnote-ref-7)
8. (أضواء البيان5/686ـ687) . [↑](#footnote-ref-8)
9. (أضواء البيان1/63) [↑](#footnote-ref-9)
10. (أضواء البيان2/297) [↑](#footnote-ref-10)
11. (أضواء البيان1/8) . [↑](#footnote-ref-11)
12. (أضواء البيان1/37) . [↑](#footnote-ref-12)
13. (البخاري 6/67، مسلم2/1093) [↑](#footnote-ref-13)
14. (أضواء البيان1/130) . [↑](#footnote-ref-14)
15. (البخاري كتاب التفسير 6/39، مسلم كتاب صفات النافقين 4/2157) [↑](#footnote-ref-15)
16. (أضواء البيان1/340ـ342) [↑](#footnote-ref-16)
17. أحمد بن أحمد شرشال مجلة البيان [↑](#footnote-ref-17)
18. الجامع للقرطبي، 2/19. [↑](#footnote-ref-18)
19. التحرير والتنوير، 1/585. [↑](#footnote-ref-19)
20. الجامع للقرطبي، 1/376. [↑](#footnote-ref-20)
21. الجامع للقرطبي، 3/136. [↑](#footnote-ref-21)
22. تفسير ابن كثير، 1/524. [↑](#footnote-ref-22)
23. التحرير والتنوير، 18/376. [↑](#footnote-ref-23)
24. تفسير ابن كثير، 1/129. [↑](#footnote-ref-24)
25. تفسير الرازي، 6/118. [↑](#footnote-ref-25)
26. التحرير والتنوير، 18/376. [↑](#footnote-ref-26)
27. تفسير ابن كثير، 3/336. [↑](#footnote-ref-27)
28. الجامع للقرطبي، 6/186. [↑](#footnote-ref-28)
29. تفسير الرازي، 12/178. [↑](#footnote-ref-29)
30. مسلم 4685 [↑](#footnote-ref-30)
31. رواه مسلم، ح./ 2699. [↑](#footnote-ref-31)
32. تفسير الرازي، 7/85. [↑](#footnote-ref-32)
33. تفسير المنار، 7/370. [↑](#footnote-ref-33)
34. التحرير والتنوير، 7/370. [↑](#footnote-ref-34)
35. الجامع لأحكام القرآن، 1/14. [↑](#footnote-ref-35)
36. مقدمة تفسير السعدي، 4. [↑](#footnote-ref-36)
37. تفسير المنار، 1/12. [↑](#footnote-ref-37)
38. تفسير ابن باديس، 33. [↑](#footnote-ref-38)
39. الجامع للقرطبي، 7/56. [↑](#footnote-ref-39)
40. أحكام القرآن، لابن العربي، 2/759. [↑](#footnote-ref-40)
41. الجامع للقرطبي، 4/92. [↑](#footnote-ref-41)